مطاردة السّحرة: تأمّلات إنسانيّة في فيروس كوفيد 19

مينغ-كي وانغ *

تسعى هذه الورقة البحثيّة، عبرَ اختيار محاكمات السَّحَرة في أوائل عصر أوروبا الحديثة وفي أمريكا الشّمالية بوصفهما أُنموذجين، إلى تبيان كيف يصبح للخوف والعنف الجماعيّ بحقّ «السَّحَرة» المزعومين أهمّيّة خاصّة ولا سيّما في مرحلة الأزمات. وتُعدّ الهويّة الجماعيّة للمجتمع السّبب الأساس لتلك التوجّهات؛ إذ يسهل إثارة تلك الهويّة عبر الشّك والخوف من الغرباء المعادين والمتآمرين ومن الأعداء في الداخل، وعبر التحيّز الدائم ضدّ المرأة. لم تساعد العقلانيّة الفكريّة التي تشكّلت منذ عصرِ التنوير النّاس على التخلّص من الجهل الذي توارثوه عن حياتهم المجتمعيّة البدائيّة. وتُعدّ العولمة والأنشطة البشريّة العابرة للحدود الآن كبؤرة تشكّل الفيروس وانتقاله؛ إلّا أنّنا لا نقصد في هذه الورقة بـ»الفيروس» الجسم الذي يحمل المرض؛ وإنّما أيضًا «الغريب» الذي يتخطّى الحدود ويجتاح المجتمع. وسأقوم في ما يلي، بدراسة سلسلة من التحدّيات الاجتماعيّة الرّئيسة التي يشكّلها تفشّي مرض كوفيد19- ، داعيًا إلى مفهوم معدّل للعولمة يولي أقصى الاهتمام بالإيكولوجيا البشريّة المحلّيّة.

---

* أستاذ في أكاديميّة سينيكا، معهد التاريخ وفقه اللّغة، بكين - الصين: ترجمة إيمان حمود.

مقدّمة

كثيرًا ما قرأت في السّنوات القليلة الماضية - من أجل مشروع بحثيّ - كتاب «مطرقة الساحرات» لـ ماليوس ميلفيكاروم Malleus Maleficarum، وهو أطروحةٌ من القرن الخامس عشر حول مطاردة السَّحَرة[1]. يبيّن هذا الدليل التحقيقيّ في أساس علم اللّاهوت المسيحيّ، أنّ السّحرة موجودون فعلًا، وأنّ جوهرهم هو الشرّ. ويشرح أيضًا كيف يمكن البحث عن السّحرة، ومحاكمتهم، ومعاقبتهم. وبحلول القرنين السادس عشر والسابع عشر، كانَ الكتاب قد حظي بترحيب، وتمّ تداوله على نطاق واسع في مختلف أنحاء أوروبا. وقد أدّى الخوف والاشمئزاز من السّاحرات إلى استجواب حوالى عشرة إلى مئتي ألف شخص وتعنيفهم معظمهم من النّساء، والحكم عليهم بالإعدام؛ بسبب جرائم الشّعوذة[2]. يُعدّ الكتاب، في الوقت الحاضر، المُمثّل الأخير للخرافة والجهل والتعصّب المسيحيّ في العصور الوسطى. في المقابل، يُعتقد أنّ تاريخ عصر التنوير في القرنين السّابع عشر والثامن عشر، ساعد النّاس على الانفصال عن قيود مشيئة الرّبّ، وجعل التّفكير المنطقيّ قاعدة المجتمع الحرّ الديمقراطيّ والإنسانيّ، من خلال التقدّم السّريع للعلوم والصّناعة والتّجارة المعاصرة. وقد أفادت أوروبا وأمريكا الشّمالية إفادة كبيرة من مجموعة مبادئ عصر التنوير، وعلى قيادة العالم نحو الحقبة المعاصرة بعد ذلك؛ بسبب تلك المبادئ. ومن المؤكّد أنّ الانخفاض السّريع الذي شهده أواخر القرن السّابع عشر،

1- Heinrich Kramer & James Sprenger, The Malleus Maleficarum of Heinrich Kramer and James Sprenger, trans. by Montague Summers (New York: Dover Publications, 1971).

2- تشير التقديرات المتاحة إلى أنّه بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، كان هناك في أوروبا وحدها حوالى 100000 محاكمة سحر وما لا يقل عن 50000-40000 حالة وفاة. وتشير التقديرات الأقل تفاؤلاً إلى 200000-100000 محاكمة، حيث حُكم على حوالى 100000-50000 شخص بعقوبة الإعدام. لكن من الممكن أنّ العدد الحقيقيّ للضحايا لم يتمّ الإبلاغ عنه بشكل كافٍ؛ لأنّ النسبة العالية من المحاكمات لم تتمّ بشكل رسميّ. انظر: Brian P. Levack, Witch-Hunt in Early Modern Europe, third edition (London: Pearson Longman, 2006); Robin Briggs, Witches and Neighbors: The Social and Cultural Context of European Witchcraft (New York: Penguin, 1996), 8; John Demos, The Enemy Within: A Short History of Witch-hunting (New York: Penguin, 2008), 37-39.

في مطاردة السَّحَرة، يُعدّ انتصارًا لعصر التّنوير وما تبعه من رواج المنطق العلميّ، ومفهوم حقوق الإنسان، والإصلاح القضائيّ الذي جلبه للبشرية[1].

سبب ذكري لهذا الاستطراد الوجيز عن تاريخ الشّعوذة، أنّ هذه الأخيرة عاودت الظهور في ظلّ جائحةِ الطاعونِ الأسود - أو ما سُمّي بـ «الموت الأسود» - وتأصّلت بشدّة مع تلك الجائحة حالة ذعر شديدة. وهو أمر ليس بالبعيد عن وضع فيروس كورونا الرئويّ المُستجدّ (كوفيد - 19)، الذي نتعامل معه اليوم. في كلتا الحالتين، يبدأ الناس الذين يربطهم شعور قويّ كالخوف، بالتساؤل عن مصدر «الملوِّث»، وما الّذي يمكن فعله للتخلّص منه. ومن البدهيّ القول: إنّنا نكرّر الآن قصصًا قديمة، يتقصّى فيها المحقّق علاماتٍ تدلّ على العلاقة مع الشيطان، ثمّ يحدّدُ المصدرَ النهائيّ لـ «التلوث»، فيُعذّب السّاحر، وبعدها يُبحثُ ما إذا كانَ أحدٌ آخر قد أغواه الشّيطان وتسبَّبَ بانتشارِ «التلوّث» بشكلٍ أكبر، ثمّ يجلبهم أخيرًا إلى المحكمة. وعلى الرّغم من الإجراءات التنفيذيّة، فإنّ الدّليلَ يؤكّد أنّ قتل السّحرة حرقًا، أو «بأساليب الوقاية» الأخرى التي يتمّ القضاء فيها على «الملوِّث» لم تكن ناجحة في التغلّب على الطّاعون.

كان لمحاكمات السّحرة والإعدامات العلنيّة، في تلك المرحلة الزمنيّة نفسها، معنى آخر مهمّ: كانت شكلًا من أشكال طقوس العنف الاجتماعيّ الذي سمح للنّاس بتخطّي مخاوفهم وتعزيز وحدة المجتمع، الذي كان على وشك الانهيار؛ بسبب الخوف والرّيبة اللّذَين طال أفراده. من هذا المنظور، استنتج مؤرّخو مطاردة السّحرة أنّ «السّاحر» يُجسّد كبش الفداء، أو العدوّ الداخليّ الذي تُتّخذ إجراءاتٍ جماعيّة وعنيفة ضدّه، والتي لم تختفِ أبدًا من التاريخ[2]. ويُشكّل الخوف والريبة والعنف الذي يُشنُّ على بعض الدّول، أو المجموعات العرقيّة، أو الاجتماعيّة المُهمّشة بسبب كوفيد19 - ، الدليلَ الأكثر إثارة على ذلك. وتستحقّ طبيعةُ هذا النَوع ودرجته من العنف في مطاردة السَّحَرة اهتمامًا أكبرَ من الفيروس نفسه.

1- Levack, op. cit, 253-71.

2- يشرح على سبيل المثال، مؤرّخ جامعة ييل جون ب. ديموس، في الفصل الختاميّ من كتابه الأساسي عن تاريخ مطاردة السحرة في أوروبا ونيو إنجلاند، العدو في الداخل، أن «مطاردة السحرة» كانت من الأحداث التي أدت إلى مكارثية منتصف القرن العشرين، خلال حقبة مكارثي، التي لاحقت المتهمين بالتآمر مع الأنظمة الشيوعيّة. Cfr. Demos, op. cit., 241-92.

المجتمع البشري والفيروس

من الجليّ أنّ عصر التنوير لم ينوّر النّاس، أو يُحرّرهم من الجهل الأكثر بدائيّة: مثل التباين العنصريّ والطبقيّ بين الجنسين، المُتأصّل في المجتمعات البشريّة، وما يصاحب هذا التباين من تحامل على «الآخرين» والتمييز ضدّهم وممارسة العنف بحقّهم. وتحت عنوان الهويّة الجماعيّة، قد تُرمى «الفيروسات» عادةً على الأشخاص من خارج «مجموعتنا»؛ فيزعم الأغنياء أنّ الفقراء هم القذرون وأنّهم حملة الوباء، ويعتقد الرجال بأنّ سمّ النساء قد يؤدي إلى أضرار في المجتمع، كما يعتقد أهالي قرية معيّنة بأن أهالي القرى المجاورة خطيرون؛ بسبب حملهم الجراثيم.

تتمثّل الصورة النمطيّة، التي تزيد من تعقيد الصورة العامّة، أنّ الملوّثات والسّموم دائمًا ما تترادف مع «الآخرين». فكراهية «الأشرار والملوِّثين» الخارجيّين والخوف منهم، تُشعر أفراد المجتمع بأمان ودفء أكبر. وقد دفعت الموجة الحاليّة والانتشار العالميّ لفيروس كورونا دولاً ومجتمعات عدّة حول العالم إلى إغلاق حدودها، وتقييد تنقّل السكان. لكن ما قد يبدو للوهلة الأولى وسيلة علميّة للحدّ من ازدياد كثافة الوباء، اتّضح في الحقيقة أنّه ليس إلّا آليّة بدائيّة لحماية المجتمعات. لقد ظهر هذا النوع من آليّات الحماية، تحديدًا في الإجراءات المستقلّة التي اتّخذت لإغلاق الطرقات في قرى ريفيّة عدّة في الصين.

في الواقع، لا حاجة إلى التضرّر من الأمراض الخبيثة، أو الكوارث الطبيعيّة، فلطالما عانى المجتمع البشريّ من الانغلاق لدرجة معيّنة. مصطلح «المجتمع» يدلّ هنا على أيّ مجموعة من الناس سواء كانت هذه المجموعة صغيرة بحجم العائلة، أو القبيلة أم كبيرة بحجم البلد، أو الأمّة. ويتجلّى انغلاق المجتمع البشريّ في جوانب عدةّ، كالوحدة والروابط الفطريّة بين «نحن» في الداخل، والشك والعداء تجاه «غيرنا» في الخارج، وبين الحدود المكانيّة الفعليّة كحدود القرى والحدود الدَّوليّة، كما يتجلّى عبر تأكيد التمييز بين «نحن» و«هم» من خلال الأداء الموضوعيّ والتقويم الذاتيّ للملابس وللنظام الغذائيّ وعادات الحياة اليوميّة[1].

1- أكثر عمل موثوق حول هذا الموضوع هو لبيير بورديو، (التمييز: نقد اجتماعيّ لحكم الذوق) Pierre Bourdieu, Distinction: A Social Critique of the Judgement of Taste، ترجمة ريتشارد نيس (لندن: روتليدج وكيجان بول، 1984م).

يشير «هم» خصِّيصًا إلى «الآخرين الذين ليسوا من الداخل، أو هم «خارج» المجموعة، أو على أطرافها، كالهنود المسلمين من منظور الهندوس، أو الهندوس من منظور الباكستانيّين المسلمين، أو التايوانيّين من منظور سكّان برّ الصين الرئيس. ولأنّهم الأقرب «لنا»، يُعدّ الأعداء من الداخل أو من المحيط، الأكثر تهديدًا وخطرًا؛ بسبب المنافسة الشديدة على الموارد وما تؤدي إليه من تفاعلات سلبيّة في كثير من الأحيان. كل تلك الأمور تجعل الناس يشعرون بأنّ «الأعداء القريبين» و«الأعداء البعيدين» قد يتواطأون معًا لجلب «التلوّث» من العالم الخارجيّ إلى المجتمع الداخليّ.

تظهر جوانب من هويّة المجتمع أعلاه من خلال إدراك الناس للـ «فيروس» وخوفهم منه، أكثر تعقيدًا ممّا يبدوان عليه. ويميّز الناس عادةً بين نوعين من السموم: الأوّل، هو القريب المباشر الذي يسهل التحكّم به؛ والثاني، هو البعيد، وهو نوع من السموم غير متوقّع ويصعب التحكّم به، وهو في كثير من الأحيان مجرّد نتاج الخيال الذاتيّ للناس. وأغلب الظنّ أنّ كلا النوعين مرتبط بالآخر، فقد يشكّ الناس في من هم على هامش المجتمع ويصنّفونهم على أنّهم «ملوّثات داخليّة» ومن السهل أن يقعوا فريسة «للقوى الخارجيّة» الشرّيرة التي تخطّط لزعزعة استقرار حياة المجتمع.

وبناءً عليه، فإنّ الاشتباه في عدوّ قريب قد يعمل جنبًا إلى جنب مع تلك القوى الخارجيّة، يخلق جوًّا من السرّيّة المظلمة تسود المجتمع بأكمله. يتّضح هذا الأمر بشكل أكبر في محاكمات السَّحَرة في أوائل عصري أوروبا الحديثة وأمريكا الشماليّة. فقد حذّرت السلطتان: الدينيّة، والعلمانيّة الجماهير من أن القوى الخبيثة (الشياطين) هي المسؤولة من خلف الكواليس، وأنّ تلك القوى تعمل بوساطة عدوّ من داخل المجتمع (السَّحرة). على تلك الخلفيّة، تطوّرت مطاردة الساحرات إلى نوع من التضامن الاجتماعيّ الذي جمع الناس معًا في ملكوت الله. والمثال الأكثر شيوعًا على ذلك هو محاكمات سالم في العام 1692م في أمريكا الشماليّة. فقد ألقى القس المسيحيّ العالم «كوتون ماذر» (1663م 1728-م)، خطابًا بمناسبة إعدام ساحرة، نبّه فيه الناس إلى خطر السَّحَرة، المشتبه بهم، الذين يتسلّلون إلى المجتمع متظاهرين بأنّهم أبرياء ولكنّهم في الواقع قادرون على القيام بأشياء مروّعة. قدّم «ماذر» في ذلك الخطاب الجماهيريّ الدوافع الكافية لاتّهام القس جورج

بـوروز (1650م 1692م)، والحكـم عليـه بالإعـدام على مشـنقة جرائـم السّـحر[1]. ويبدو أنّ «مـاذر» كان يكـره «بـوروز» لاعتقـاده أنّ الشـيطان -العـدوّ البعيـد- قـد تغلغـل إلى قلـب مجتمـع الكنيسـة (دائـرة الكاهـن) مـن خـلال العـدوّ الداخليّ السـاحر بـوروز[2].

تجـدر الإشـارة إلـى أنّ «كوتـون مـاذر» حقّـق إنجـازًا فـي مجـال العلـوم الطبّيّـة والصحّـة العامّـة: فـكان أول مـن تقـدّم بفكـرة التّطعيـم في منطقـة بوسـطن، عبـر اقتراحه تلقيـح كمّيّـة صغيـرة مـن الفيـروس للوقايـة مـن الجـدري؛ لإنقـاذ حيـاة الكثيـر مـن النـاس. وهـذا يـدلّ على أنّ «مـاذر» كان يعلـم جيّـدًا، في مجـال العلـوم الطبيعيّـة، أنّ تقبّـل الجسـم لكمّيّـة صغيـرة مـن السّـمّ تجعلـه أكثـر مقاومـةً لسـموم أكبـر. وعلى الرّغـم مـن ذلـك، لـم يكـن «مـاذر» قـادرًا أو لعلّـه كان متـردّدًا في تحويـل معرفتـه في العلـوم الطبيعيّـة إلى مُخطّـط لفهـم المجتمـع البشـريّ. وفي الواقـع، ينطبـق الشـيء عينـه على العالـم الإنسـانيّ: فـإذا كان بإمـكان النّـاس أن يتحمّلـوا بعـض الاختـلاف والتبايـن، ولـم يصـرّوا على تجانـس المجتمـع أو نقائـه، يمكنهـم عندئـذٍ -وإلى حـدّ ما- تجنّـب الكثير مـن التوتّـرات الداخليّـة والعـداء الخارجيّ، والخـوف غيـر الضـروريّ، والشـك والعنـف.

اليـوم، وفـي مواجهـة أزمـة الوبـاء الكبـرى، يسـتمرّ عـدد مـن قـادة العالـم والسياسـيّين في ارتـكاب الأخطـاء نفسـها، مـن خـلال التشـديد على الطبيعـة السـامّة للقـوى الأجنبيّة وخطـر تدخّلهـا فـي شـؤون المجتمـع. كمـا يضخّـم هـؤلاء الشـكوك حـول تواطـؤ عـدوّ داخليّ مـع تلـك القـوى الخارجيّـة، ويهـدّدون باسـتخدام العنـف ضـدّه، وذلـك كلّـه مـن أجـل تعزيـز أسـطورة «مجتمـع مُتخَيَّـل» متماسـك داخليًّا ومتجانـس هيكليًّا. ذلـك العدوّ

1- يقـال أنّـه قبـل وقـت قصيـر مـن إرسـاله إلـى المشـنقة، تلـى بـوروز الصـلاة الربّانيّـة فـي حالـة ذهنيّـة هادئـة للغايـة. أثّـر هـدوءه علـى الجمـوع ؛ مـا صعّـب مهمّـة منفـذي حكـم الإعـدام. لكـن خطـاب مـاذر أقنعهـم بتنفيـذ الإعـدام.

2- كان مـاذر ووالـده، انكريـز مـاذر (1639م-1723م)، مـن الشـخصيّات الدينيّـة والفكريّـة والسياسـيّة البـارزة فـي التاريـخ الاسـتعماريّ المبكـر للولايـات المتحـدة. كان انكريـز مـاذر رئيـس جامعـة هارفـارد، بينمـا كان ابنـه مـن بيـن مُؤسّسـي جامعـة ييـل. تشـوّهت مسـيرة كوتـون مـاذر المهنيّـة وسـمعته؛ بسـبب مشـاركته فـي محاكمـات السـحرة فـي سـالم. فـي كتابـه «عجائـب العالـم غيـر المرئـيّ، يؤيّـد مـاذر المحاكمـات لمعقوليّتهـا وشـرعيّتها وقيمهـا اللّاهوتيّـة المسـتقيمة. انظـر: Cotton Mather, The Wonders of the Invisible World: Observations as Well Historical as Theological upon the Nature, the Number, and the Operations of the Devils, ed. مـع مقدمـة بقلـم راينـر سمولينسـكي (Lincoln Digital Commons، جامعـة نبراسـكا، 1693م).

الداخليّ أو القريب، والعدو الخارجيّ أو البعيد، والعلاقات بينهما، قد يكونا إمّا أمرًا حقيقيًّا جدًّا، أو من نسج خيال النّاس فقط. وتُعدّ قضيّة تايوان وهونغ كونغ مثالًا على تلك الظاهرة. في تايوان مثلًا، حصل الحزب الديمقراطيّ التقدّميّ -الذي ينادي باستقلال تايوان ويتبنّى سياسة مناهضة للصين تتوافق مع إستراتيجيّة ترامب - على السلطة مرة أخرى في العام الماضي. وتسبّبت حركة الاحتجاج التي اندلعت في هونغ كونغ في العامي 2019 - 2020م بالكثير من الاضطرابات الاجتماعيّة. ومِنْ ثَمّ، اجتذبت التعاطف والدعم الدّوليّين، خاصة من الولايات المتحدة وبريطانيا؛ ما دفع الحكومة الصينيّة والشعب الصينيّ إلى الاعتقاد بأنّ تايوان وهونغ كونغ يميلان أكثر نحو الغرب، وتمّ عدّهما من فئة أعداء الداخل. وعلى العكس من ذلك، فإنّ أكثر من يُشتبه بهم -بحسب الأيديولوجيا السائدة في تايوان- هم حزب الكومينتانغ ومن يُطلق عليهم «سكان البر الرئيس»[1] المُتّهمين بأنّهم أكثر ميلًا إلى المصالح الصينيّة، والذين يُشتبه في «تسميمهم» للمجتمع التايوانيّ؛ بسبب علاقتهم الطويلة الأمد مع جمهوريّة الصين الشعبيّة. في كلتا الحالتين، فإنّ قادة كل كيان سياسيّ هم من يغرس الخوف والكراهية في المجتمع، من خلال تلفيق العلاقات وتخيّلها مع الأعداء المحلّيّين أو الأجانب؛ بحيث يقدرون على تعزيز سلطتهم كقادة لمجتمعاتهم، وعلى تعزيز شعور الاتحاد بين أتباعهم. وكما يقول مثل صينيّ قديم: «بلد ليس فيه أيّ فوضى داخليّة وتهديد خارجيّ سيفنى عاجلًا». أعتقد أنّ هذه العبارة هي -إلى حدٍّ كبير- انعكاس صادق «للمجتمع المُتخيَّل» عبر تخيّل الأعداء من قبل عدد من القادة السياسيّين والنّخب الحاكمة.

العلاقة بين العرق والجنس والفيروس

اعتمد أشخاص من بلدان عدّة، ومن خلفيّات عرقيّة متنوّعة، ومن مناطق مختلفة مجموعة واسعة من إستراتيجيّات الاستجابة للأزمات في أثناء تعاملهم مع

1- يستخدم مصطلح «سكان البر الرئيس» عادةً للإشارة إلى الأشخاص المنحدرين من أصل صينيّ والذين هربوا إلى تايوان مع حزب الكومينتانغ في العام 1949م عندما استولى الحزب الشيوعي على البر الرئيس للصين. يتبنّون موقفًا سياسيًّا وثيقًا وودودًا تجاه الصين، على الرغم من أنّ ذلك الموقف ليس صحيحًا بالضرورة، وبالتأكيد لا يشملهم جميعًا.

فيـروس كوفيـد - 19؛ وأدّت بعـض تلـك الإسـتراتيجيّات إلـى الكثيـر مـن خطابـات العنـف والكراهيـة. لكـن الجائحـات ليسـت كمـا يبـدو، مجـرّد مسـألة رعايـة صحّيّـة أو عـلاج طبّـيّ أو وقائـيّ؛ بـل هـي أيضًـا، مسـألة ذات أهمّيّـة اجتماعيّـة كبيـرة.

تُغذّي القصـص عـن الفيروسـات خيـال النـاس، ومـا يسـهّل تلـك العمليّة، سلسـلة من التحيّـزات السياسـيّة والعرقيّـة والثقافيّـة والجنسـانيّة. تُبنـى القصـص علـى ذلـك الخـوف مـن العـدوى، ولكنّهـا تتداخـل -في نهايـة المطـاف- مـع أنـواع أخـرى مـن الخـوف. أحـد تلـك المخـاوف هـو رؤيـة الصيـن كتهديـد وجـوديّ للديمقراطيّـات ذات النمـط الغربـيّ، أو مـا يسـمى بـ «نظريّـة التهديـد الصينـيّ»، بالإضافـة إلـى أسـباب الخـوف التي أنتجتهـا النظريّـة الأكثـر هجوميّـة عنصريًّـا وثقافيًّـا وهـي نظريّـة «صـراع الحضـارات»[1]. إنّ ذلـك التداخـل بيـن المخـاوف المُتخيَّلـة والملموسـة إلـى حـدٍّ مـا، هـو الـذي حـوّل فيـروس كوفيـد - 19 إلى دافـع للتمييـز الاجتماعيّ. هكـذا أصبـح ذوو الأصـول الصينيّة (المهاجـرون، والتجمّعـات الصينيّـة فـي الخـارج) كبـش فـداء؛ ما سـهّل في البلـدان التي يتواجـدون فيهـا ويختلـف نظامهـا السياسـيّ اختلافًـا كبيـرًا عـن نظـام جمهوريّـة الصيـن الشـعبيّة. وسـيتمّ اسـتهداف أولئـك الأشـخاص كونهـم «أعـداء الداخـل» الذيـن يتواطأون مـع الصيـن، وسـوف يعانـي أولئـك مـن الاسـتبعاد الاجتماعـيّ ومـن الشـتائم والهجمـات المعاديـة للأجانـب. فـي مثـل هـذا السـيناريو، من الشـائع جدًّا أن يُسـقط الناس اسـتياءهم مـن جيرانهـم الصينيّيـن على الصيـن ككل، أو على العكـس، يمكـن أن تـؤدي كراهيـة الصيـن، والخـوف منهـا، إلـى زيـادة الشـكوك والكراهيـة، وتُعـدّ التعليقـات المُهينـة التـي أدلـى بهـا مُقـدّم البرامـج على قنـاة أميـركان فوكـس نيـوز (American Fox News) «جيسـي ووتـرز» فـي برنامـج حـواريّ عـن الأمريكيّيـن الصينيّيـن، بالإضافـة إلـى التقريـر الإعلامـيّ العنصـريّ مـن قبـل الشـخص نفسـه ضـدّ الأمريكيّيـن الصينيّيـن فـي العـام 2016م، مثـالًا واضحًـا عـن كيفيّـة عمـل الآليّـة النفسـيّة التـي تقـوم بالربـط بيـن الأعـداء الداخليّيـن والأعـداء الخارجيّيـن[2].

1- هنـا أشـير، علـى وجـه الخصـوص، إلـى الجـدل الـذي أحدثـه مقـال نشـره صمويـل ب. هنتنغتـون، أسـتاذ فـي جامعـة هارفـارد. الجـدال الـذي طرحـه هنتنغتـون هـو أن الصراعـات بيـن حضـارات العالـم سـتكون المصـدر الرئيـس للاضطرابـات العالميّـة فـي المسـتقبل القريـب. انظـر: S. Huntington، The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order (New York: Simon & Schuster، 2007).

2- تم بثّ تعليقات ووترز الأخيرة على فضيحة كوفيد-19عبر موقع بزنس انسايدر. مقال ←

يمكن أيضًا رؤية التخوّف من التواطؤ بين الأعداء القريبين والبعيدين من منظور أساطير الشعوذة. في الفولكلور الغربيّ، يظنّ الناس أنّ السَّحَرة المحلّيّين (العدو القريب) يمكنهم الطيران عند غشاوة الليل لحضور يوم السبت «شابات»، حيث يجتمعون مع الشيطان والسَّحَرة في أماكن أخرى (العدو البعيد). وتحظى مثل تلك المعتقدات بشعبيّة كبيرة بين أقلّيّة تشيانغ، في مرتفعات غرب محافظة سيتشوان في الصين. فليس منذ زمن بعيد، كانت كلّما حلّت الأمراض والوفيات المفاجئة والمصائب من مختلف أنواعها قرية من قرى تشيانغ، تخضع النساء التي تعرف بـ «القطط السامّة» للمساءلة[1]. وتقول الأسطورة أنّ المرأة التي تكون «القطة السامّة» في قرية ما (العدوّ القريب) ستطير إلى مكان مقدّس في ليالٍ معيّنة؛ لتنضمّ إلى حفلة تأكل فيها اللّحوم البشريّة مع مجموعة كبيرة من النساء مثلها يأتين من أماكن أخرى (العدوّ البعيد). إنّ الفرق الوحيد بين الفئتين المذكورتين أعلاه من «السَّحرة» هو أنّ أوروبا الحديثة المبكرة وأمريكا الشمالية قد شهدتا عمليّات تطهير واسعة النطاق في صيد السّاحرات حصدت مئات الآلاف من الضحايا؛ بينما لم تشهد محافظة سيتشوان مثل ذلك الأمر. وفي منطقة تشيانغ، يُعدّ اتّهام أحد بأنّه قطة سامّة هو مجرّد اشتباه وثرثرة وإشاعة بين القرويّين، ولا يستخدم الناس عادةً العنف الجسديّ بحق أولئك النّسوة.

← ديفيد تشوي، «They are a very hungry people: Fox News host fuels racist tropes about Chinese over coronavirus outbreak» (March 3, 2020) ؛ يتوفر المصدر عبر الإنترنت على https://www.businessinsider.com/fox-news-jesse-watters-chinese-demands-apology-racism-2020-3.

في العام 2016م، قدّم ووترز برنامج «O'Reilly Factor»، وهو برنامج على قناة فوكس نيوز، حيث أجرى خلال زيارته للحيّ الصينيّ في الولايات المتحدة مقابلات مع الصينيّين المحلّيّين واستفسر عن آرائهم حول الانتخابات الرئاسيّة آنذاك وما موقفهم من ترامب. تكشف الطريقة التي يصوّرهم بها عن مدى سطحيّة الصور النمطيّة وعبثها عن الصين في الغرب. ويبرز أنّ الصينيّين لا يفهمون اللغة الإنجليزية، ويتجنبون دائمًا التعبير عن آرائهم السياسيّة. في ذلك البرنامج، لم يتحدّث عن أي شيء سوى الطعام الصيني، ويعدّ أن التنين والكاراتيه والسلع الرخيصة هي رموز للثقافة الصينيّة. يمكن العثور على لقطات من المقابلات على https://www.youtube.com/watch?v=SxYUYH5x0-s&t=71s&list=WL&index=31.

1- أنظر: Ming-ke Wang, The Qiang between the Han and Tibetans, esp. Ch. 4 (Taipei: Lianjing Chuban Gongsi, 2003; Beijing: Zhonghua Shuju, 2008).

ومع ذلك، لا يمكن تجاهل شكوك النّاس، وخطاب الكراهية في حياتهم اليوميّة. ووفقًا لشهادة الذين تمّ استدعاؤهم إلى المحكمة في أثناء محاكمات السِّحر في سالم في منطقة بوسطن، فقد انتشرت الشائعات حول ما سُمّي بـ «السَّحرة» قبل وقت طويل من رفع دعوى رسميّة ضدّهم[1]. ولا يختلف هذا الوضع عن الشائعات حول «القطة السامّة» في قرى تشيانغ في الماضي. ولا يغفل المؤرّخون، الذين درسوا مطاردة الساحرات في أوروبا وأمريكا الشماليّة، الخلفيّة الاجتماعيّة المعقّدة لتلك المطاردات، مثل المجاعة والحرب والاضطرابات السياسيّة، بالإضافة إلى الموت الأسود، ما أدّى إلى العنف الجماعيّ. وهناك ما يكفي من البيانات في الأرشيف التي تدعم هذه الفكرة، لكن يبدو أنّ الثقافة الحاليّة، تتجاهل تلك العوامل كمحفّز للعنف. وبغضّ النَّظر عمّا إذا كنّا ننظر إلى الأشياء من منظور الجاني أو من منظور الضحيّة، فإنّ أكثر عامل تسبّب في مطاردة السَّحَرة هو انتشار بيئة العداء والشك والخوف التي انتهكت حياة الناس اليوميّة. وأيّ شخص يعيش في مثل تلك البيئة سيشتبه حتى في الجار، أو الأقارب ويتّهمهم بالسّحر[2].

تخبرنا أساطير السَّحرة أنّ الشكّ البسيط والتمييز والكراهية في الحياة اليوميّة، بما في ذلك الإهانات التافهة التي يمكن تصنيفها اليوم كدعابات يسمح بها المجتمع على أساس حرّيّة التعبير، كانت تيّارًا خفيًّا مهملًا في التاريخ. وعندما

1- ومن الأمثلة الجديرة بالذكر هي: إليزابيث مورس في نيوبري، وماساتشوستس، ويونيس كول في هامبتون -نيو هامبشاير. راجع: David D. Hall (ed.), Witch-Hunting in 17th-Century New England: A Documentary History 1638-93, second edition (Boston: Northeastern UP, 1999); Bernard Rosenthal, Salem Story: Reading the Witch Trials of 1692 (Cambridge, UK: Cambridge UP, 1993); J. Demos, Entertaining Satan: Witchcraft and the Culture of Early New England (New York: Oxford UP, 1982). في بعض الدراسات حول مطاردة السحرة في أوروبا، أشار العلماء أيضًا إلى أنّ العديد من النساء كان يشتبه بهنّ ساحرات لمرحلة طويلة قبل إرسالهنّ إلى المحكمة لمحاكمتهنّ. المزيد عن هذا الموضوع في Levack, op. cit., 146-48.

2- في هذا الصدد، أتّفق مع المؤرّخ روبن بريجز (1942م-) واستفدت من رؤيته لما حدث بين الأشخاص ذوي العلاقات الاجتماعيّة الوثيقة في الحياة اليوميّة. انظر كتابه Witches and Neighbours: The Social and Cultural Context of European Witchcraft. (New York: Harper Collins، 1996).

يخشى الناس كارثة كبيرة، يمكن أن يثير ذلك التيّار الخفيّ موجات من العنف، كتلك الحوادث التي تؤدّي إلى ضرر اجتماعيّ كبير، وتسجل لاحقًا على أنّها «من التاريخ». اليوم، ومع تفاقم أزمة كوفيد - 19، أصبح -وللأسف- خطاب الكراهية والتنمّر في الشوارع والأنفاق ووسائل الإعلام التلفزيونيّة والإنترنت جزءًا من حياتنا اليوميّة. وهذا يتطلّب أقصى درجات اهتمامنا.

إنّ الذكاء والمنطق البشريّ هشّان للغاية، ولم تساعد الثورة العلميّة التي أحدثها عصر التنوير كثيرًا في التخفيف من تلك الهشاشة. لقد أشار «نيل بوستمان»، الأستاذ والخبير في التواصل الإعلاميّ، إلى ذلك من خلال طرح مثال مدهش. فحتى أواخر عشرينيّات القرن الماضي، كانت ألمانيا لا تزال تُعدّ مركز «عالم العقل»، حيث اجتمع فيها كبار الفلاسفة والعلماء والفنّانين. ومع ذلك، وفي أقل من عقد، مع صعود النازيّين إلى السلطة، انزلقت البلاد إلى جهل قاتم[1]. فبعد الحرب العالميّة الثانية بمرحلة قصيرة، تمّ نشر عدد كبير من الكتب حول محرقة الهولوكوست، ولكن ثبت أنّ ذلك لم يكن كافيًا للعودة إلى «عصر العقل»، ولا يمكن أن يمنع مثل تلك الجرائم الفظيعة من الحدوث مرة أخرى. والمثير للسخرية هو أنّ «دولة» كيان إسرائيل، التي أسّسها «اليهود ضحايا الهولوكوست»، تقوم الآن بقتل الفلسطينيّين على طول الضفة الغربيّة، وفي قطاع غزة. وأسوأ ما في الأمر هو غياب ما يمكن للمجتمع الدوليّ، والأمم المتحدة، والعديد من المنظمات الإنسانيّة أن تقوله، أو أن تفعله لحل هذا الوضع.

من الصعب جدًّا، إن لم يكن من المستحيل، أن يفهم الناس بوضوح دقة جرائم القتل وخطورتها التي ارتكبها هتلر والنازيّون من خلال التركيز على الأدلّة التاريخيّة فقط؛[2] إذ يكمن المصدر الحقيقيّ لأيّ شكل من أشكال العنف الجماعيّ

1- بوستمان ن, «Future Schlock,» in idem (ed.), Conscientious Objections: Stirring Up Trouble About Language Technology and Education (New York: Vintage Books, 1992), 162-74.

2- استكشف المنظّر السياسيّ إريك فويغلين (1901م-1985م) ردود الدوائر الفكريّة والسياسيّة الألمانيّة في أعقاب الحرب العالميّة الثانية، وتوصّل إلى استنتاج مفاده أنّ الناس كانوا يميلون إلى عزو جميع أشكال الشر إلى المواقف الشموليّة لعدد قليل من القادة السياسيّين. ولكن، من ناحية أخرى، استمروا في تجاهل المسؤوليّة الفرديّة لأولئك الذين دعموا أو حتى أدّوا دورًا نشطًا في المجزرة النازيّة. يتساءل فويجلين ←

في التفاعلات بين الأفراد في الحياة اليوميّة. فحين يطغى على تلك التفاعلات الخوف، غالبًا ما يكون المجرم شخص واحد فقط من بين عدّة أشخاص طبيعيّين يشكّلون المجتمع الاجتماعيّ، وتكون الضحيّة على الأغلب إحدى جيرانه. في كتابه «جيران Neighbors» عن «محرقة الهولوكوست» في ظلّ نظام ألمانيا النازيّ، يصف الكاتب جان ت. جروس (1947)، ما جرى في المدينة البولنديّة الخاضعة للحكم الألمانيّ في العام 1941، عندما قام سكان بلدة «جيدوابني» البولنديّين بذبح جيرانهم اليهود الذين كانوا يُمثّلون نصف سكان البلدة، بمن فيهم كبار السّنّ والضعفاء والنساء والأطفال[1]. أمّا في كتاب «رجال عاديّون Ordinary Men»، فيقوم الكاتب كريستوفر.ر. براوننج (1944) بالتحقيق في «كتيبة الشرطة الاحتياطيّة 101»، التي نفّذت إبادة اليهود في بولندا. ويشير الكاتب إلى أنّ رجال شرطة تلك الكتيبة المتورّطين في القتل كانوا مجرد أشخاص عاديّين ليس لديهم أيّ مهارات خاصّة، أو أيّ خبرة في العنف، لكنهم أتمّوا مَهمّتهم من دون تردّد[2]. ويفسّر ذلك بشكل أوضح ما سبق وطرحته، كيف أنّ العنف على نطاق واسع يقوم على الشك والإشاعات حول «السحرة» في الحياة اليوميّة.

الميزة الأخرى المشتركة بين كل من فولكلور الشعوذة الغربيّ وأساطير القطط السامّة المشهورة في محافظة «سيتشوان» هي أنّ المستهدفين والمُتّهمين أغلبهم من النساء، ويعكس هذا الأمر وجود درجة من التمييز بين الجنسين مُتأصّلة في المجتمعين: الغربيّ، والصينيّ. ويضيء قطاع الرعاية الصحّيّة أكثر على تلك المسألة؛ فحوادث تعرّض النساء في قطاع الخدمات الطبيّة لأشكال مختلفة من العنف تتزايد أكثر فأكثر، وتتجاوز نسبة النساء العاملات في هذا المجال كممرّضات وقابلات وراعيات للمُسنّين نسبة الرجال بكثير. ولا يوجد أيّ سبب يدعو إلى عَدّ النساء أكثر ملاءمة لتلك الوظائف من الرجال! وفي الواقع، يُعدّ المرض والموت

← أيضًا عن العقليّة الكامنة وراء صعود النازيّة وما إذا كان يمكن عدّ تلك العقليّة التي لم تعد مهيمنة في ألمانيا المعاصرة. انظر كتابه Hitler and the Germans، مترجم ومحرّر ويشمل مقدمة بقلم كليمنس د. وبورسل ب. (كولومبيا: دار نشر جامعة ميسوري؛ 1999).

1- ج. ت. غروس Neighbors: The Destruction of the Jewish Community in Jedwabne, Poland (New York: Penguin, 2002).

2- س. ر. براوننغ, Ordinary Men: Reserve Police Battalion 101 and the Final Solution in Poland (1992; repr. New York: Harper Perennial.

من المحرّمات ذات الدلالات السلبيّة التي رسخت في أذهان معظم الناس.

وهكذا يتمّ التعامل مع المرض والموت كمهن مُخصّصة للإناث؛ لأنّ تلك المهن تميل إلى الارتباط بالخطر والسّم. وقد يكون هذا هو السبب في تشجيع النساء، على اختيار مسار مهنيّ في مجال الصحّة. وليس من المستهجن في كثير من الثقافات، وجود نساء سامّات، كما في المقولة الصينيّة: «محاربة السّم بالسّم». ووفقًا لبعض المعتقدات والعادات الشعبيّة في المجتمع الصينيّ التقليديّ، يظنّ الناس أنّ النساء ينتمين إلى طاقة اليين (وتعني حرفيًّا: أنثوي، داكن، أو سلبيّ) تُمكّنهنّ من معالجة بعض الأمور «غير النظيفة». هذه أمثلة قليلة عن أصالة التمييز حسب الجنس في الثقافة الصينيّة الشعبيّة. كما أدّت عاصفة مطاردة الساحرات التي ضربت أوروبا الحديثة وأمريكا الشماليّة إلى إدانة الكثير من النساء وتعذيبهنّ وإعدامهنّ؛ بسبب علاجات السِّحر الشعبيّة التي قدّمنها إلى المرضى، ومشاركتهنّ كقابلات[1]. وفي المقابل، تمّ الاحتفال بجلالة فلورنس نايتنجيل (1820-1910) في القرن التاسع عشر في أوروبا التي صارت تعرف لاحقًا بالرمز الأكثر رفعة للتمريض الحديث والتضحية والتفاني من أجل المرضى. كيف شهدت النساء ذلك التحوّل الخطابيّ من ساحرات إلى معالجات؟! إنّ انقلاب الدور، في حدّ ذاته، يستحقّ بحثًا أعمق.

يوضح ذلك كيف يمكن للتحيّزات القديمة بين الجنسين أن تشكّل خوف الناس وفهمهم للمرض والموت، يجب أن نبعد أنفسنا عن التعصّب الأيديولوجيّ الأعمى المختبئ وراء فرضيّات مماثلة. وأن تمنح المرأة الاحترام الذي تستحقّه فقط من خلال الاعتراف بأنّها ليست أقل ولا أكثر ميلًا للعمل في المجال الطبّيّ من الرجل، ومن خلال منح كليهما فرصًا متساوية للدخول في ذلك المجال. من جهة أخرى، يُسهم ما سبق في توضيح فشل العلم الحديث ونهجه العقلانيّ الذي لم يُمكّن الناس بعد في كثير من النواحي من تحرير أنفسهم من عبوديّة الجهل. ومِنْ ثَمَّ، فإنّ مساهمة العلوم الإنسانيّة ما بعد الحداثة ضروريّة لسدّ تلك الفجوة، وللتحفيز المطلوب بشدة للتفكير في قضايا العرق والجنس والهويّة، والتي لا تزال - كما يبدو في الوقت الحاضر - غير كافية أبدًا. ولذا، يجب أن تركّز الأبحاث المستقبليّة أكثر على تلك القضايا.

1- Levack, op. cit., 151.

العلاقة ما بين اجتياز الحدود والعولمة والفيروس

يبدو أنّ ظهور فيروسات مثل كوفيد - 19 وسارس وإنفلونزا الطيور وانتشارها، مرتبط بالاتّصال ما بين البشر والحيوانات البرّيّة. وبما أنّ الأنشطة البشريّة تتخطّى الحدود، فإنّ الفيروسات التي تعيش مع الحيوانات البريّة تدخل الى النظام البيئيّ البشريّ. ولا يقتصر الأمر على هذا فحسب؛ فكثير من حالات التفشّي الخطيرة للأمراض المعدية في تاريخ البشريّة، حدثت غالبًا عند اجتياز الحدود عبر تحرّكات واسعة النطاق للسكان؛ كالبعثة المنغوليّة التي اتّجهت غربًا في القرن الرابع عشر وجلبت الموت الأسود المُدمّر إلى أوروبا، وكما حدث في القرنين السادس عشر والسابع عشر، عندما نقل المستعمرون الأوروبيّون أمراضًا مُعدية تسبّبت في وفاة الكثير من الهنود الأمريكيّين. ومن المعلوم أنّ البشر في جميع أنحاء العالم يُشكّلون نُظمًا بيئيّة محلّيّة تتضمّن الكائنات الحيّة الأخرى (بما في ذلك البكتيريا) والفيروسات. إنّ التدفّق الواسع النطاق للأشخاص العابر للمناطق يؤدي إلى اتصال النظم البيئيّة غير المتجانسة، وغالبًا ما ينقل ذلك التدفّق أشخاصًا يحملون بكتيريا وفيروسات يصعب على البيئات الأخرى التعايش أو التعامل معها.

واليوم، في سياق العولمة، يجب ألّا نفكّر فقط في «الفيروس غير المألوف» الناجم عن حركة الناس عبر الحدود؛ بل علينا التفكير تلقائيًّا في الاضطراب الاجتماعيّ والفوضى التي يُسبّبها الأشخاص الذين يتعاملون مع «أشخاص آخرين غير مألوفين» من دول أو أوساط ثقافيّة مختلفة، وما ينتج عن ذلك من عداء وعنف ضدّهم. ففي ظلّ تدفّق السلع والعمالة الناتجة عن العولمة، أصبح لدى الكثير من الناس خدم في المنازل من الجنسيّة الفيليبينيّة أو الإندونيسيّة، وعمّال أتراك أو باكستانيّين في المصانع، بالإضافة إلى مطاعم من جنوب شرق آسيا ومن الشرق الأوسط، وأجهزة منزليّة مصنوعة في المكسيك والصين نراها على رفوف السوبر ماركت.

مع توسّع استفادة البلدان من عمليّة النموّ الاقتصاديّ، بات الجميع يلحظ الآثار الإيجابيّة المتزايدة للعولمة. ولكن العولمة تسبّبت بأضرار لبعض القطاعات أكثر بكثير من الفوائد التي جنتها. فقد تأثّر المزارعون بها سلبًا؛ لأنّهم لم يعودوا أحرارًا في اختيار زراعة محاصيلهم، واضطرّوا إلى تعديل عملهم بالكامل ليتناسب واتجاهات السوق العالميّة. لقد تدفّق المزارعون وغيرهم من الشرائح الفقيرة من

سكان الريف، إلى الكتل المدنيّة والصناعيّة التي توفّر العمالة الجديدة الرخيصة لنظام الإنتاج العالميّ. وبالنسبة إلى أمثال أولئك، إنّ المقولة القديمة «لا مكسب يأتي بلا ألم» لم يعد لها أيّ معنى. فنتيجة لتدفّقات رأس المال والعمالة العابرة للحدود الوطنيّة، والنسبة العالية من الأرباح في السلعة التي يأخذها أولئك الذين يمتلكون حقوقها الملكيّة الفكريّة، فإنّ عمّال المصانع وغيرهم من ذوي الدخل المنخفض - المحلّيّين أو الأجانب - عالقون في وظائف مُتدنّية الأجر ولا سبيل لهم للخروج منها. وعلى ما يبدو، إنّ عولمة كل من المعرفة والتعليم والتوظيف وتسويقها، تجعل أهالي طلّاب جامعات هارفارد وبيركلي أكثر فأكثر ثراءً. لكن المثير للسخرية، أنّ الرسوم الدراسيّة باهظة لدرجة أنّ الأهالي الأثرياء فقط هم من يمكنهم تحمّل تكاليف إرسال أولادهم إلى جامعات ذات مستوى عالميّ.

ما هو أسوأ من ذلك أنّ العولمة - خاصّة تلك الموجة التي حدثت في حقبة ما بعد الحرب العالميّة الثانية والتي أدّت إلى إعادة توزيع غير مسبوق للثروة - أسهمت في تعميق الفوارق والتمييز العرقيّ والطبقيّ في المجتمع؛ ما أضعف، إلى حدّ كبير، الإنجازات التي حقّقتها ثورة القرن التاسع عشر ضدّ العنصريّة والرأسماليّة. تلفت تلك الظاهرة النظر بشكل استثنائيّ في البلدان والمدن التي وصلت فيها العولمة إلى مستوى النضج الكامل. ففي مثل ذلك الاقتصاد المُعَولم، يتمّ تمييز المصرفيّين، والمدراء التنفيذيّين للشركات عبر الوطنيّة في المباني التجاريّة، عن صغار التجّار، وعمّال الياقات، وعمّال المصانع، والباعة الجوالين، أو عمّال الخدمة المنزليّة، على أساس العرق، أو العنصر، أو الجنسيّة، ويعتقد الناس عادةً أنّ ذلك التمييز هو أمر مفروغ منه.

في عصر العولمة الرقميّة، أدّى تنقل السكّان وانتشار المعلومات عبر الإنترنت إلى تقليص المسافة بين الناس من مختلف الثقافات أو البلدان؛ ما سمح لأولئك الذين نعدّهم «آخرين مجهولين» أن يقتربوا منّا أكثر، وأن تزيد المخاوف تجاههم. عادةً ما يكون سبب الخوف انعدام المعرفة أو الجهل، وعلى العكس، يشعر الناس بالطمأنينة والأمان في عالم يألفونه. وقد اعتاد الكثير من الأمريكيّين على تقبّل حقيقة أنّ أكثر من 10000 شخص يُقتلون سنويًّا من جرّاء العنف المُسلّح، وعلى فكرة البقاء في المنزل ليلًا من أجل الأمان. كما اعتادوا أيضًا على تقبّل ترك الكثير من النّاس يموتون من الإنفلونزا والأمراض الأخرى نتيجة العجز الخطير

في أنظمة الصحّة العامّة والتأمين الطبّيّ. إلّا أنّهم اعتادوا أيضًا على عَدّ جيرانهم من ذوي الأصول الأفريقيّة والآسيويّة ومن الشرق الأوسط غريبي الأطوار، ويصعب التعرّف إليهم. ولذلك، هم يتخذون موقف الخوف والرّيبة تجاههم. يميل الناس في المدينة العالميّة إلى الإصرار على بعض ما يسمّى بالمبادئ العالميّة للإنصاف والعدالة، لكنّهم -في الوقت نفسه- غير قادرين على التسامح، أو أنّهم ببساطة لا يريدون فهم الممارسات الدينيّة، والسلوكيّات الاجتماعيّة، والقيم الأخلاقيّة لـ «الدّخلاء غير المألوفين» في محيطهم.

يؤدي اعتماد الناس على التلفزيون، أو وسائل الإعلام الإلكترونيّة التي تصنع الرأي العام أو «المنطق»، إلى جهل الآخر، أو إلى سوء فهمهم للأشياء الأجنبيّة والأشخاص الأجانب؛ ما يُبرّر موقف الخوف والتعصّب تجاههم. قام «تريفور نواه»، مُقدّم البرنامج التليفزيونيّ السياسيّ الأمريكيّ الساخر «ذا ديلي شو»، بمونتاج للتصريحات الإعلاميّة التي أدلى بها الإعلام الأمريكيّ والشخصيّات السياسيّة التي عبّرت عن عدم الخوف من فيروس كورونا، وحوّلها إلى فيلم قصير بعنوان «تحيّة لأبطال جائحة الحماقة كورونا». وتلك طريقة ساخرة لوصف موجة الفيروس في نيسان/ أبريل (2020)، وارتفاع مُعدّل الوفيات السريع في الولايات المتّحدة[1].

ذكرت سابقًا في هذا المقال، «نيل بوستمان»، الباحث الأمريكيّ الذي انتقد الناس؛ بسبب غبائهم. كان نقده مُوجّهًا إلى الإعلام التلفزيونيّ، عندما قال أنّ التلفزيون يعرض كل شيء - من السياسة إلى الدين - على أنّه محض ترفيه، وحذّر الناس من «الاستمتاع بالغباء»[2]. كان ذلك في الثمانينيّات. أمّا اليوم فلا يزال الوضع هو نفسه أو حتى أسوأ من ذي قبل. أصبحت تقارير التلفزيون والصحف أكثر عدوانيّة وابتذالًا، وذلك بسبب تنافسها مع وسائل الإعلام الإلكترونيّة ذات الأسلوب نفسه. وقد ظهرت تلك النزعة بوضوح؛ لأنّه منذ جائحة كوفيد - 19، ازدادت الأخبار المُزيّفة والآراء غير المسؤولة، وتعليقات التنمّر في وسائل الإعلام

1- باللّغة الإنكليزيّة، تعمّد تريفور نواه إعادة صياغة كلمة جائحة «Pandemic» إلى «pandumbic» ؛ ما يشير إلى انتشار الحماقة التي صاحبت أزمة فيروس كورونا في جميع أنحاء العالم. تمّ بثّ الحلقة في الرابع من مارس، وهي متاحة على الرابط https://www.youtube.com/watch?v=NAh4uS4f78o.

2- Postman, op. cit.

المختلفة بشكل كبير.

كان الغرب في العقود الثلاثة الماضية، وفي مقدّمته الولايات المتّحدة، يعيق نهوض الصين. والسبب وراء ذلك، حسبما يُزعَم، أنّ الصين أخفقت في الالتزام بقواعد المجتمع الدوليّ التي وضعتها الدول الغربيّة المُتقدّمة. وقد تمّ إلقاء اللّوم عليها لانتهاكها قواعد التجارة وحقوق الملكيّة الفكريّة التي طالما ضمنت لتلك البلدان أرباحًا ملائمة وتجارات مربحة. تمّ إدراج الصين في نظام الإنتاج العالميّ، ولكنّها في التقسيم الدوليّ الحالي للعمل، أصبحت تدريجيًّا غير مستعدّة لقبول منصب الاقتصاد كثيف العمالة منخفض التكلفة الذي احتلّته. فهل الصين هي حقًّا «فيروس» النظام العالميّ كما تخبرنا الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيّون؟ إذا كانت الإجابة نعم؛ لأنّنا نفترض أنّ جميع الفيروسات تتحوّل لتتعايش مع الجسم البشريّ، فهل ستتحوّل الصين نفسها وتتكيّف مع بيئة العولمة ومعاييرها وأنظمتها في الاقتصاد والسياسة والمجالات الأخرى كتلك الموجودة في الدول الغربيّة؟! وحتى لو كانت ستفعل ذلك، فهل سيكون من المحتمل أنّها كلّما نجحت في تقليد الدول الغربيّة، سيزداد الخوف والرّيبة منها في عقل هذا الأخير، ومِنْ ثَمَّ، تصبح «الفيروس» أو العدوّ الداخليّ؟[1].

علاوة على ذلك، يمكن القول أنّ السوق المُعَولَم هو نوع جديد من ساحات المعركة الإمبرياليّة، حيث نشأت المنافسة والصراعات بين القوى الكبرى، وحيث لا تستطيع البلدان المجاورة لها الهروب من الاستغلال. وأصبح من السهل جدًّا أن تؤدّي المواجهات بين «الحلفاء» بخلفيّاتهم الاجتماعيّة والثقافيّة المختلفة في ساحة المعركة، والتي يتمّ تبسيطها من قبل دعاة «صراع الحضارات» إلى التعارض بين «الغرب وبقيّة العالم»، إلى صراعات سياسيّة وعسكريّة خطيرة. ومع كل الأزمات والشكوك التي سبقت الإشارة إليها، هناك شيء واحد فقط مُؤكّد: أنّ الصورة المثاليّة للعولمة، كما يصوّرها معهد بيترسون للاقتصاد الدوليّ وهو مؤسّسة

1- قام الناقد الأدبيّ والمؤرّخ وعالم الأنثروبولوجيا الفرنسيّ رينيه جيرار (1923م2015-م) بالتحقيق على نطاق واسع في العلاقة بين العنف الجماعيّ وصنع كبش الفداء والدين. وصاغ مفهوم «المضاعفة الوحشيّة» للإشارة إلى «الآخر» الذي يشبهنا «نحن»؛ بحيث يكون الخوف والعنف دائمًا متلازمين في أيّ علاقة بين الاثنين. المزيد: ر. جيرارد، العنف والمقدس Violence and the Sacred، ترجمة باتريك جريجوري (بالتيمور: دار نشر جامعة جونس هوبكنز، 1977م).

فكريّة أمريكيّة: «خلق عالم أفضل مع بلدان تسعى إلى التعاون مع بعضها بعضًا؛ لتعزيز الرخاء والسلام»، ليست سوى كذبة جميلة[1].

الخاتمة: العولمة مقابل الإيكولوجيا البشريّة المحلّيّة

يُضاف تفشّي كوفيد 19 إلى العدد الكبير من القضايا الاجتماعيّة المعقّدة للغاية التي مرّت علينا في خلال السنوات القليلة الماضية، مثل: أزمة الانحسار الماليّ في العام 2008م، والاضطرابات السياسيّة في صراع الشرق الأوسط وتدخّل القوى السياسيّة والعسكريّة الخارجيّة في الصراع، وأزمة اللّاجئين في أوروبا، وخروج بريطانيا من الاتّحاد الأوروبيّ (بريكست)، والحرب التجاريّة بين الولايات المتحدة والصين، وسياسة الرئيس ترامب «أمريكا أوّلاً»، وقيود السفر الأخيرة التي أعقبت تفشّي المرض...؛ ما يمكننا تعلّمه من تلك الانتكاسات الدّوليّة القاسية أنّه، إلى جانب العولمة، على النّاس الاهتمام أكثر بقضايا الإيكولوجيا البشريّة.

نذكر كمثال توضيحيّ صغير، أنّ مفهوم الإيكولوجيا البشريّة يختلف عن أيّ صورة نمطيّة للأنظمة الاجتماعيّة الغربيّة أو غير الغربيّة، وليس له علاقة بدرجة التقدّم أو التراجع الاقتصاديّ. هذا المفهوم يُعبّر عن مركّب يتكوّن من البيئات، والعيش البشريّ، والنظام الاجتماعيّ والممارسة الثقافيّة. ويقدّم انتشار الوباء مثالًا على أهمّيّة الإيكولوجيا البشريّة. لقد تعارضت مأساة كوفيد - 19 التي نراها بأمّ أعيننا مع توقعات الكثير من الناس. هذا الخلل يعود غالبًا إلى أنّ الناس تقيس نجاح آليّات أو فشلها تجنّب تفشّي الوباء في بلد ما استنادًا إلى معاييره الطبّيّة ومستوى التنمية الاقتصاديّة والقوّة الوطنيّة الإجماليّة. ولكن الحقائق الأخيرة أثبتت أنّ الخصائص البيئيّة، والإستراتيجيّات الاقتصاديّة، والمنظّمات الاجتماعيّة والعلاقات الإنسانيّة، والعادات والممارسات الثقافيّة، وما إلى ذلك، هي كلّها عوامل رئيسة لنجاح الوقاية، أو فشلها من مرض كورونا وعلاجه. يوضح هذا المثال الجديد والواقعيّ أهمّيّة الإيكولوجيا البشريّة. ببساطة، إنّ الأشخاص الذين يعيشون في بيئات مختلفة، ويتبنّون إستراتيجيّات معيشيّة متنوّعة، يطوّرون تبعًا لذلك نظامًا

1- مقتبس من «What is Globalization? And How Has the Global Economy Shaped the United States?», المصادر الإلكترونيّة: https://www.piie.com/microsites/globalization/what-is-globalization.

اجتماعيًّا ومنظّمات وثقافات ملائمة، ومِنْ ثَمَّ، يشكّلون أنظمة إيكولوجيّة بشريّة لتلبية احتياجاتهم ومصالحهم. بهذا المعنى، تتوجّه الإيكولوجيا البشريّة إلى إمكان استفادة الناس من الموارد المتاحة للعيش في مجتمع مزدهر وآمن وعادل ومتناغم. لذا، يجب النظر إلى البيئة والاقتصاد والمجتمع والثقافة على أنّها مترابطة مع بعضها بعضًا كنوع من «الكلّ الشامل».

الصراعات الدّوليّة الناجمة عن التجارة العالميّة في السنوات الأخيرة، بالإضافة إلى آليّات الوقاية من الوباء، والصعوبات الاقتصاديّة التي سبّبها الاعتماد المفرط على العولمة، باتت كلّها تحذيرات للناس في العالم أجمع. وبعد أن تنتهي هذه الجائحة، ستشهد دول رائدة في عولمة اقتصاد الشبكة الإلكترونيّة تغييرات جذريّة حتمًا في سياساتها؛ بحيث يمكن تعديل إستراتيجيّات العولمة ودراستها. أمّا بالنسبة إلى الصين، فإنّ السؤال الذي يستدعي البحث والمناقشة هو كيفيّة «استيعاب» الإنجازات الاقتصاديّة السابقة وغيرها من أجل تحسين نظامها الإيكولوجيّ البشريّ الخاص بها. ينطبق الأمر نفسه على دول العالم، فإذا كان جعل العالم بأكمله، نظامًا إيكولوجيًّا مثاليًّا، أمرًا بعيد المنال ويصعب التطلّع إليه، أو إذا لم يكن هذا هو هدف العولمة النهائيّ للدول التي تتنافس فيما بينها، أفلا يجب على الدول، أو على دول منطقة معيّنة تحسين نظامها الإيكولوجيّ الخاص، واحترام خيارات الآخرين؟!